التأثيرات العربية في الأدب الغربي
في ضوء الأدب المقارن

الأستاذة: باية كاهية
قسم اللغة والأدب العربي
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة محمد بوضياف- المسيلة

في وقت حل فيه الدمار، وسار العرب فيه إلى الماوراء، وترنحوا وتمايلوا، بل وتراجعوا وتقهقروا بالحضارة العربية الإسلامية إلى البدايات الأولى وربما ما قبل هذه البدايات وبالرغم من أن هذه البدايات أسهمت في سموا أقوام ودول وحضارات، وبرغم ما مر على العرب عبر العصور من نكبات وعثرات دمرت المكتسبات وأحرقت المكتبات أو رمت بما فيها في قعور البحار أو لوثت بها الأنهار ودنست الأقطار.

رغم الصدمات القاتلة والاجتياحات الكاسحة حفظ للعرب تراثهم، حفظت حكمتهم، حفظت دواوينهم وأيامهم، حفظت أخبارهم ومجالسهم ومناظراتهم، حفظت أسواقهم وخلدت بالذكر بفضل آدابهم ومنها سمع وعرف عن مكتبات تعج بكتب ومخطوطات قد تعد النجوم ولا تعدها:« في هذا الجو ينشئ صلاح الدين الأيوبي وحده خمس مدارس مذهبية كبيرة للشافعية والمالكية والحنفية كما يبني الكامل دار الحديث الكاملة حتى لقد أحصى المقريزي بالقاهرة من أثار الأيوبيين خمسا وعشرين مدرسة كان بإحداها الفاضلة مكتبة ضمت مائة ألف مجلد وتبارى حكام ذلك الزمان في تشجيع حركة التأليف والتجميع»[1].

لقد كان لحركة الترجمة الأثر الكبير في الوصول إلى كل ما وصل إليه العرب وما حديثنا السابق إلا دليل على ذلك فلا أدل على تلك الترجمات التي قام بها العرب لما كانوا بحاجة إليه:« وتمثلوه تمثلا فريدا بحيث يصعب اتهامهم بأنهم نقلة مقلدون، واستفادوا مما اطلعوا عليه في فلسفات الآخرين من يونان وهنود وفرس في بناء فلسفة إسلامية مميزة، كما استفادوا من نتاجات الأمم الفكرية في بناء نتاجهم الفكري الخاص» [2].

من هنا تمكنوا من أن يتميزون ويميزون أنفسهم عن غيرهم وبالخصوص في مجال العلوم والفنون والآداب وغيرها كثير، ومن هنا أيضا خلد تراثهم عبر العصور وذاع صيتهم بين الأمم وعبر الحضارات وسموا بعلومهم إلى مصاف الدول المزدهرة والمتطورة فاستقت من علومهم الشعوب ونهلت منها للمضي قدما نحو التحضر والتطور حيث اطلع المستشرق الأجنبي على هذا التراث من أدب ونقد وسياسة وتاريخ واجتماع... إلخ فلم يجد هناك بدا من هذا النبع الذي لا ينضب، هذا الرصيد الهائل من الكنوز العربية التي نظر إليها نظرة جديدة فتحت له بابا واسعا نحو الآفاق العلمية والأدبية.

كان لتأثير التراث العربي في الأدب الغربي الأثر البارز والصدى الواسع في عصر النهضة وما قبله، إذ لا يمكن لأي دارس أن ينكر فضل هذا الأخير في التطور الذي حصل فيما بعد على مستوى الأدب الأوربي ولاسيما فيما يخص تلك الترجمات من العربية إلى اللاتينية والأوربية بالخصوص منها ما كان في الأدب الأسباني، والتي قام بها ثلة من العلماء والأدباء والدارسين تأثروا أيما تأثر بأدب العرب وتراثهم فعندما:« تكون هناك نصوص أصلية عربية، وترجمات أوربية، ثم أعمال مقلدة واقتباسات مستمدة من تلك الترجمات كما في حالة النظام الإكليريكي Disciplina Clericalis فإن التأثير العربي يتضح بجلاء ولا يستطيع أي مؤرخ محترم للأدب أن يجازف بتجاهله»(3).

لقد كان مفعول هذه الترجمات على أوربا وحتى أمريكا وغيرها من دول العالم وقاراته كالسحر، بدءا من القرن التاسع عشر لذلك نجد الكثير من الأدباء والدارسين الأوربيين، قد أخذوا عن العربية إن لم نقل قد استعاروا منها بعض الأنواع الأدبية وطوعوها لما يخدم أدبهم الأوربي، فشكلوا وأنتجوا بل أبدعوا مؤلفات جديدة أو قد تكون أصيلة ولا أدل على ذلك من قصة حي بن يقضان لابن طفيل في التراث العربي الإسلامي وقصة روبنسون كروزو لدانيال ديفو 1660/ 1731 هذه التجربة الذاتية في الإيمان والتي تجمع بين البطلين أتراها تجمعهم كعلاقة نصية أم كعلاقة نسب بين نصين؟

بعد الاطلاع على النص العربي لابن طفيل اعتمد فيما بعد مرجعا أساسا ومن هنا صاحبه اهتمام واسع بالأدب العربي وتراثه فبعد أن ترجم إلى الإنجليزية أسهمت هذه الترجمة:« في النضج الفكري للمذهــب البروتيستانتي الأوربي وفقا لما يقولــه نيكولاس

ريشير 1967، فقد كان النص العربي بمثابة حركة دفع للإيديولوجيا الدينية، الفلسفية التي تأسست عليها حركة التقوية Pietism الإنجليزية في القرن السابع»[4].

ويأتي عمل أخطر وأعظم أبحر كثيرا في بحور العربية الحافلة بتراث الأمة وتاريخها، ألا وهو الكوميديا الإلهية للكاتب الإيطالي الأشهر دانتي والتي استقاها من الثقافة العربية الإسلامية فإن لم تكن من قصة الإسراء والمعراج الواردة في القرآن الكريم فإنها تكون من رسالة الغفران لأبي العلاء المعري.

إن الخوض في هذه المسألة يدعونا للبحث والتساؤل عن الكثير من الأجناس الأدبية والأنماط التي أثرت في أدب الغرب شعرا نثرا مذاهب ومدارس كان للعرب فيها اعتقاد سائد بأنها من إنتاج الغرب وإبداعه مع أنها في أصولها الأولية تعود إلى تراثهم: « فمع بروز المدارس الأدبية العربية: الكلاسيكية والرومنطقية أو الرومانسية والواقعية والرمزية في الأدب الغربي، نهد بعض الباحثين العرب إلى دراسة الأدب العربي القديم من خلال هذه المصطلحات، فإذا بالشعر الجاهلي يغدو المرحلة الكلاسيكية، وصار ابن الرومي رومنطيقيا لمجرد أنه وصف في قصيدة له غروب الشمس... »[5].

وإذا أتينا للحديث عن فن الشعر وأهم أغراضه من خلال القول السابق فإنه سوف تطالعنا في الشعر العربي القديم أغراض شعرية وأدبية كثيرة نتبنى منها غرض شعري قد أفردت له قصائد كاملة، أو ورد كأبيات متأتية في ثنايا القصائد خاصة الجاهلية منها، والتي تحوي الكثير من الموضوعات المختلفة في القصيدة الواحدة أو في المعلقة الواحدة.

الغزل كموضوع ألهم الشعراء وهام به الكثير من المغرمين والعاشقين فكرة قديمة حديثة فهل يمكن أن تدين مسألة كهذه إلى الفكر العربي إنتاجا وإبداعا خاصة وأنها وجدت في الأدب الأوروبي بعنوان" الحب الغزلي" Courtly Love البروفانسي؟.

أم هل أن هذا الأدب ولاسيما الإسباني منه قد استقى قصص الشطار ونوادرهم وحكاياهم أو ما يسمى البيكاريسك عن فن المقامة العربية؟.

أم هل نأتي للمقارنة بين ما وجد من شعر ملحمي بطولي في التراث العربي مقارنة بالشعر الملحمي الأوروبي وبخاصة الإسباني منه؟.

هناك من يعتقــد بأن تاريخ البشرية له بداية معرفيــة واحدة وعلى هذا الأساس

يرون بأن:« تاريخ البشر واحد على أساس وحدة الفكر الإنساني، أما التمايز بين الثقافات فهو وليد ظروف تاريخية معينة، فالمجتمعات قد اعتبرت على الدوام بمثابة وجود متواصل متجانس مؤلف من طبقات تطورية وأقسام موازية يسير فيها التطور حتما في خط مستقيم ولا بد من جميع المجتمعات أن تمر بها»[6].

لذلك تتقدم وتتطور شعوب عن شعوب لكن في يوم ما ستصل تلك الشعوب التي تأخرت إلى ما مرت به الشعوب المتقدمة وعلى هذا الأساس تختلط عليهم الأمور من الأسبق عمن؟.

في تراثنا الموسوعي أعمال جليلة وقدير قدر لها البقاء لعبقرية أصحابها وفطنتهم وكذلك لأنها فرضت ذاتها بشتى الطرق أعجب بها الغرب فسحرتهم وأخذت بألبابهم ومنها ما نجده في هذا العمل العظيم والجليل والذي قام به باحث ودارس فرنسي متفطن لعبقرية عربية خلدها عملها الموسوعي الفذ ألا وهو الأستاذ(م ب ميشيل) الذي قام بترجمة لكتاب" نهاية الأرب في فنون الأدب" لشهاب الدين أحمد ابن عبد الوهاب النويري المتوفى عام 732هـ الموافق لـ 1332م.

لقد انتبه الأستاذ ميشيل منذ وقت مبكر لما احتوته وتضمنه الموسوعات العربية القديمة من فنون التراث، والتي أسهمت بشكل واضح في تطوير الأدب الغربي من حيث أنه متفتح على استيعاب الثقافة والحضارة العربية من جهة، ومن حيث كونه مصدرا للجمال، وباب من أبواب المتعة من جهة ثانية، فكان القارئ والمتتبع للتراث العربي يجد فيه متعة تجعله يتتبعه ويخوض فيه إلى أبعد ما ذهب إليه فيه صاحبه، وهذا ما عبر عنه البعض في وصفهم للنص الناجح الذي يعد بمثابة المغناطيس الذي يجلب إليه أي قارئ أو مستمع.

إن النص الناجح يوقفنا سواء بكلمته والتي في الأساس يبنى عليها أي نص: « الكلمة في البداية والنهاية هي التي استوقفتنا... لا لتدور في محاورها ولكن لنتجاوزها إلى آفاق أرحب يثيرها النص الناجح... ويتفق من جرائها عديد من التداعيات والتصورات والأحلام بل والمعلومات، ومن هنا ننسى جميعا كيف انطلقنا... ونغفل مبرر الانطلاق ومحكه ولا نكاد نذكره حتى ينتهي وقت الترحال مع الأفكار... ونجد أنفسنا في النهاية نذكر المفرد اللغوي من قبيل" الواجب"... و" المجاملة"... [7].

وهذا حال تراثنا عند الغرب إذ يجدون فيه سحرا خاصا يجذبهم إلى قراءته للاستفادة منه والاستمتاع به وهذا حال قصص ألف ليلة وليلة الساحرة رغم أنها ليست إبداعا عربيا خالصا إلا أن سحر العرب الممزوج بأحداثها والموجود في طياتها جعلها تتميز بالعروبة:« وأما في الأدب، فقد أبدع المسلمون إبداعا رائعا في التعاطي مع كتاب ألف ليلة وليلة، أو بالأحرى مع كتبها، إذ قيل إن العرب ترجموها عن أصول هندية وفارسية يونانية وهذا القول وحده ينفي أن يكون كتاب" ألف ليلة وليلة" مترجما، إذ لا أصل واحد له، بل هو في الحقيقة:« مزيج من آداب مختلفة وثقافات مختلفة هضمها العرب هضما كليا وصبغوها بلون عربي بارز، فهي وإن كانت في بعض حكاياتها فارسية الأصل أو هندية أو يونانية فأصلها العربي يبقى مسيطرا سيطرة بارزة وهو ركن قوي من أركانها الأساسية»[8].

كان الفيلسوف الألماني" كانت" يقول:« إن الجمال هو ذلك الذي يكون ممتعا بالضرورة، وهذه المتعة تنبعث من نفوسنا ونحن ندرك هذا الجمال ينبغي أن تكون مقطوعة الصلة بأية فائدة مهما كانت»[9].

وتراثنا لا يمكن أن يكون إلا جميلا وممتعا، لذلك تأثر به الغير وترجموه إلى العديد من اللغات بل وعدوه من أهم المصادر الملهمة لهم، فاغترفوا من ملذاته واستقوا من معارفه ومعلوماته مرتبطين من خلال ذلك بكل أنواع الفائدة له ولمجتمعه الذي ينتظر كل جديد.

إن دراستنا هذه والتي تعمد إلى المنهج المقارن للمقارنة بين أدب العرب وتراثهم وآداب الغرب وعلومهم والتي من خلالها نحاول الإطلالة على مدى تأثر الغرب بتراثنا لا يفوتنا أن نطرق تذوق الإبداع الفني والأدبي والعلمي، والإحساس به، فهما الأساس في الإقبال عليه، وبذلك يمكن للعقل أن يحلل منطقيا ما يدور من حوله، وللنفس بأن تطمئن وتهنأ وهي تلج إلى عوالم تدخل إليها البهجة والسرور وبخاصة الراحة والهدوء اللذان ما فتئ إنسان هذا القرن يحتاج إليهما وبشكل خطير، على هذا الأساس وذاك لا يمكن أن تكون الحياة كلها جدا وعملا وإنما على هذا الإنسان أن يجد ملاذا للراحة حيث يأوي إليه، وهنا عليه بمواطن الجمال في الفن والأدب والذي عبر عنه التراث العربي الإسلامي في شتى مجالات الحياة، والذي جعل الغرب يحتار في هذه العقلية التي يتولد عنها كل أنواع

التناقضات القوة، الضعف، الحب، الكره، الغضب، الخير، الشر، الجمال كما القبح، ومع هذا عليه الاعتراف بالجميل لهذا التراث الذي يدين إليه بكل ما وصل إليه اليوم.

الهوامش:

(1) الفلكلور في نهاية الأرب، للنويري لـ م ب ميشيل، مجلة فصول، تراثنا النثري، المجلد الثاني عشر، العدد الثالث، خريف 1993، ص 161.

(2) د/ طلال حرب، أولية النص، نظرات في النقد والقصة والأسطورة، والأدب الشعبي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1999، ص 10.

(3) A. galmés de fuentes . Influenciass in tactucasy est ilisticas del arabe. En la prosa medieval castellana. (madrid) 1956. نقلا عن: جيمس توماس مونرو: فن بديع الزمان الهمداني، وقصص البيكاريسك، مجلة فصول، ص 151.

(4) حي ابن يقضان وروبنسون كروزو، نصان في السيرة الذاتية الاستعارية، ماري تيريز عبد المسيح، مجلة فصول، ص 215.

(5) د/ طلال حرب، أولية النص، ص 08.

(6) د/ حسين فهيم قصة الأنثروبولوجيا، ص 134، 156، نقلا عن: طلال حرب أولية النص، ص 13.

(7) د/ حلمي بدير، أثر الأدب الشعبي في الأدب الحديث، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ص 06.

(8) موسى سليمان، الأدب القصصي عند العرب، دار الكتاب، بيروت، 1950، ص 21، نقلا عن: د/ طلال حرب، أولية النص، ص 11.

(9) عدنان رشيد، دراسات في علم الجمال، د م، 1985، ص 11.